الفصل العاشر

أنا حبيسة البيت, ليس هناك من يفرض علي ذلك عنوة, وإن كان ثمَّة رغبة لأحدهم بهذا, ليست أمي بكل تأكيد؛ إنَّه آخر شخص ظننته يظهر بحياتي ويعكر صفوها! وعلى كلٍ أجدها فرصة للتفكير في بعض الأمور, لرؤية المشهد العام, بعدما استجد عليه من أحداث! أعلم أنَّ الدَّهشة تملؤك, ولكنَّك لا تدري كم كان حالي بائس بالأمس, كنت ماء مرجل لا ترحمه النِّيران, فيغلي ويغلي! لا تتعجل, سأفضفض عمَّا قليل؛ إلا شيئًا واحدًا, أرى بدافع الاحتراز أن يظل في طي الكتمان؛ فالشَّخص الَّذي طل برأسه في حياتي لن يتوانى عن فعل أي شيء في سبيل الحصول على ما يريد!

دائمًا ما كانت تلاحقني نظراته بالاهتمام غير المبرر, في مناسبات العائلة التي جمعتنا! لم أنجح يومًا في التَّفسير, دائمًا ما كان يَصعُب علي التَّكهن بمرماه, مع يقيني أنَّه لا يوجه رسائله جزافًا, ربما لاستبعادي فكرة تلاقي الشَّمال مع الجنوب, واستحالة تحالف الرُّوح مع المادة! فكرة أنَّ التَّضاد لا يلتئم, ولا يتقابل, ولا يتحد, وأنَّ حتمية التَّنافر بينهما قدر!

بالأمس اكتشفت خطأي, وأنَّ قوي المغناطيسية وقوانينها من الممكن أن تنطبق على بني البشر, وأنَّه ثمَّة من البشر من يتجاذب رغم الاختلاف, كل ما هنالك أن تُطَبق القوة المناسبة للفعل وفرض الإرادة, وما حدث بالأمس -يا "فايز"- يفرض نفوذه علي لأتقابل معه وأتحد, وأبتعد عنك وأنفر! لا أحتمل مجرد الفكرة, ولكنَّ هذا ما حدث بلا أدنى مبالغة!

بالأمس فُكت طلاسم رسائل عينيه الغامضة, هو نفسه من تبرع بفك الشَّفرة العصية, ورغم أننا نُعد الفرع البائس في العائلة الثَّرية, وكنت واهمة أنَّ هذا سببًا كافيًا ليُحجم, غير أنَّه خيب كل توقعاتي, وجاء!

مع أذان العشاء, ارتفع طرق على الباب, فتحت لأجده؛ بجسده النَّحيل الممشوق, وعينيه الضَّيقتين النَّافذتين! سمَّرتني المفاجأة, طفحت على وجهي علامات التَّساؤل, تجمدت لحظات عن التَّرحيب به, وأخيرًا دعوته للدخول, فهو من أبناء العم, رغم كل جفوتي ورهبتي منه!

تقدم بخطى ثابتة, سلم على أمي, تُغلفها الدَّهشة هي الأخرى, واقتعد مقعدًا وسطيًا بيننا.

وقال:

- زيارة مفاجأة!

وابتسم ابتسامة العالمين ببواطن الأمور, وتحريك البيادق إلى مرمى الهدف, وأردف مجيبًا على نفسه:

- أعلم!

تمتمت أمي بطيبتها التي تقف حائلًا دون قراءتها ما بين السُّطور:

- البيت بيتك يا بني!

ابتسم, يرمقني بنظرة خاطفة لم تفوتني, سرت لها كهرباء خفيفة في بدني, وقال:

- المهنة تدمغ أصحابها يا "تانت".

تساءلت من باب المجاملة:

- وما دخل مهنتك في زيارة أقاربك؟!

تفجرت شفتاه بضحكة لزجة:

- مهنتي تدمغ تصرفاتي بعنصر المفاجأة.

واقتربت أنفاسه تلفحني:

- وقراءة المخبوء!

تجاهلت نصف الجملة الأخير:

- وهل زيارتك مفاجأة, نحن أبناء عم؟!

اخترقني بعينيه:

- المفاجأة في الأهم.

ارتددتُ في مقعدي:

- وما الأهم؟!

اتسعت ابتسامته كأخطر ما يكون:

- المرمى من الزِّيارة!

ثُمَّ مال تجاهي بشكل مفاجئ, وسأل بطريقته البوليسية:

- ما أخبار عملك؟

الانتقال السَّريع زاد من توتري. تمتمت, وأصابعي تفرك بعضها:

- بخير!

- و"فايز"؟

صعقتني كهرباء فغصت في مقعدي:

- إنسان طيب!

تطلع إلي يعريني ممَّا تبقى, وصمت.

وشعرت أنَّ الزَّمن توقف, والدَّقائق تأبى أن تمر, وكنت مستفزة لمعرفة مرماه! وقال:

- وما علاقته بك؟

- علاقة رئيس بمرؤوسه!

ضاقت عيناه وصارت أكثر نفاذًا, وهو يقول:

- هل تظنني أسمح بغير هذا؟!

رمقت أمي علها تنقذني, من الخِناق الَّذي يُحكم من حولي, فبدت وكأنَّها تشاهد فيلمًا سينمائيًا ممَّا تشاهد! كان وجهها حياديًا, خاليًا من أي انفعال! وتعجبت كيف لا تستثقله مثلي, وسرعان ما التمست لها العذر, فأمثاله بالنِّسبة لها من المرموقين النَّاجحين!

لم أجد سوى أن أتمتم:

- أشكرك على الاهتمام!

ابتسم مستخفًا, توجه إلى أمي بلفح نظراته, مقتحمًا لذتها بما يدور؛ فاعترتها رعشة لم تخف علي, لملمت لها أطراف الرِّداء الملتصق سلفًا بجسدها! من ثمَّ اعتكف الصَّمت بلا سبب, وقد ظننته سيلقي بقنبلة, وابتعد بعينيه إلى النَّافذة, حيث الظُّلمة بالبعيد مُوحشة بلا قمر؛ فشعرت بزفير محبوس وشهيق

obeikandl.com

راحة يترددان بصدر أمي, وسكينة المحاصر تعاوده بعدما أتاه نفير الهدنة.
وقال بنبرة مهادنة نوعًا على غير عادته:
- زيارتي اليوم لأمر, وليست لمجرد سؤال عن الحال.
قالت أمي من فورها:
- تبارك وتشرف يا بني, البيت بيتك, أنا مثل أمك, ومها أختك.
اتسعت شفتاه بابتسامة لم أجد ما يبررها, أخرج علبة سجائر "مارلبورو" والتقط واحدة بأنامله الرَّفيعة:
- وهل يتزوج المرء من أخته يا "تانت"؟!
الجملة واضحة, ولكنَّ عقلي غزته ظُلمة ليل موحش, وتوهمت عدم الفهم, فقلت وقد تضرج وجهي بحمرة القلق:
- ربنا يوفقك إلى الزَّوجة الصَّالحة!
- وجدتها!
تطلق وجه أمي بشكل مبالغ فيه, فلم أفهم, هل ادعيت مثلي عدم الفهم, أم أنَّها لم تستوعب ما قال:
- ألف مبروك يا بني!
وجعل الضَّباب يُهاجم عقلي بعنف, يعشش الزَّوايا ويتسلل إلى الكهوف والوديان, وأنا على يقين أنَّ الكارثة تتجسم في الطَّريق, وأنَّ البلوي واقعة لا محالة!
وأردف:
- وبالمناسبة؛ أنا عندهم الآن يا "تانت".
رددت أمي حائرة:
- عندهم!
ارتفعت ضحكته:
- أجلس هذه اللَّحظة بين العروس وأمها!
وتطلع إلي لوهلة, أنا المتيبسة كصنم, من ثمَّ مال يسأل أمي:
- ما رأيك يا "تانت"؟
صمتت أمي هنيهة, قبل أن ترتفع زغرودتها تمزق ما تبقى من أشلائي!

أثناء مغادرته, طالبني بترك العمل! عيناه نافذتان قاسيتان, تجوس بأعماقي, تعريني من صلابتي الهشة, أقف أمامه مثل طفلة تتلقى الأوامر. ما يحدث, بهذا التَّتابع السَّريع, أكبر من احتمالي لأرفض, أو أعترض, أو مجرد النَّبس بكلمة! كنت مسلوبة الإرادة, خاوية كما فزاعة حقل تُصفر في حشاياها الرِّيح!

وبعدما لملمت بعضًا من نفسي, صببت جام غضبي على أمي المسكينة مهيضة الجناح, وجعلت أجهش بالبكاء, حتى ذهبت في نوم يشبه الغيبوبة! معذرة, لا أقدر على مواجهتك في الوقت الرَّاهن, لا أقدر على النَّظر في عينيك, لا أقدر أن تنظر إلي, فترى أُخرى غير "مها" التي تعرف!

لو علمته, أو علمت ماذا يعمل, للمست عِظم الكارثة!

أنا في غياب لا أعلم له حضور!

سأتصل ب "عطية", ليحمل إليك هذه الأوراق التي دونت فيها ما حدث.

***

واستسلمت للفيض المنقطع, يأتيني في خلوتي.

أنت على كرسي متهالك, يشبه الكرسي القديم, في قبو معتم, شبيهًا بالقبو الأول, وقد تقدم العمر بك سنين, هذه المرة لا تدرك سببًا للاستدعاء, أفكارك الاشتراكية تهجع في سُبات, ترقد آمنة بين طيات الكتب ودهاليز الذَّاكرة المهجورة, علاها التُّراب وطمرها النِّسيان.

أنهكتك الأيام بما يكفي, لتخمد جذوتك. الهدوء ما تنشد, الرَّاحة ما تبغي, فقدت في الطَّريق ذاك العنفوان الَّذي يؤججك, أضحيت فرسًا في مضمارٍ خاسر, أُنهكت قوته, وخط الشَّيب روحه قبل أن يخط فوديه!

ولتكن أكثر مصارحة, فللحقيقة وجوه, ولتعترف أنَّ ظهور "مها", هذا الملاك الَّذي أنار دُجى ليلك, له نصيب فيما أُلت إليه, مارد الحب هو ما لعق ثُمالة المقاتل, وأخذ سيفه ودرعه وعتاد الحرب, لتستحيل في شيء كما السِّحر إلى عاشق, يهفو إلى ضجعة راحة وشيئًا من رحيق.

ويبدو أنَّ العشق هو الآخر من المحرمات في هذا الزَّمان, فليلًا اقتحموا القصر والخلوة, وأخذوك بثياب النَّوم. ما تكرر من قبل يعيد نفسه تاليًا, الاختلاف

الوحيد أنَّك لم تجد من يبكيك غير "ياسين"، وقد خلا القصر سوى منكما. الأم "جيهان" رحلت، ومن قبلها "طاهرة"، والعجوز "ياسين" لم يعد يعنيه شيئًا من الحياة، فوقف متسمرًا يتابعك، فيما يأخذوك إلى سيارة الشُّؤم، تنعق نعيق الغربان، تنتظر متحفزة على أعتاب القصر، وفي عيني العجوز لمعت أشياء لا تفهمها.

وذات الضَّابط النَّحيل، واقف فوق رأسك الغائب عن الوجود من قسوة ما لقيت، وكأنَّه قد قُيض إليك قرين في هذه الدَّنيا، ينهض إليك يُقومك، كلما حِدت عن الجادة المرسومة، وكأنَّه قد حكم عليك أن تعيش بلا إرادة ورغبة، ولو كانت محض حب.

لم يتغيّر كثيرًا، وإن ذادت شراسته، وكسا أعلى شفتيه الرَّفيعتين شارب كث، أضفى عليه شيئًا من رجولة، ينفث دخان السَّجائر "المارلبورو" في غيظ دفين.

وعيناك يلمع فيهما بقايا بريق، مثبتتان على طيف ضوء، ساقط على حافة النَّافذة. والرَّجل متحفز مثل فهد؛ فك ربطة عنقه، وشمر عن ساعديه، متخليًا عن كل أطياف الرَّحمة، مُنحيًا هدوءه وبروده المصطنع. تشعر في دخيلتك أنَّ الأمر يتعدى حدود أفكارك الثَّورية. الرَّجل يكرهك، يبغضك، يريد الفتك بك والشُّرب من دمك. ثأر ما بينكما، عيناه تتقدان، وأنفاسه تلهث، وهذه المرة جنَّب رجاله، وتولى المهمة.

شهر من الزَّمان وأنت نزيل القبو، ولا تعرف متى الخروج، وما السَّبب!

ثُمَّ طارئ يجتاحك، جديد عليك، لم يعرفه جسدك من قبل، هذه الكهرباء الشَّريرة تسري رعناء في أعصابك، ليست أسلاكهم هذه المرة ما تبث طوفان الألم، هو شيء فيك أنت، الكهرباء تنبع منك أنت، وتسري فيك أنت، تغزوك كما أمواج متوحشة، لمحيط بربري، يهاجم جزيرة وديعة!

تتوتر ملامحك، تتصلب عروقك، في محاولة لصد الهجوم المُكتسِح، غير معلوم الهوية. وتعتريك انقباضات عنيفة، لا تملك معها سوى الاستسلام لجيوش نمل عجائبية تسلب عافيتك.

تسقط من عنف ارتجاجاتك وما تلاقي من فوق الكرسي؛ الضَّابط يبتعد، يتملكه شيءٌ من رهبة، هو الآخر لا يدري طبيعة ما يحدث، خطر له أنَّك تفارق

الحياة, وأنَّ هذه سكرات الموت, وقد كان مخطئًا, لم يكن ملك الموت من يجول بداخلك, كان وحشًا خارقًا, يخترق حياتك, ويلتهمك للمرة الأولى, ليتوالى التهامك بعد ذلك على مر الأيام, يستنزفك في كل مرة يزورك فيها ويتركك معدوم القوى.

وتتمدد على الأرض يا صاح, والتَّشنجات تعصف بك, تنتفض أكثر ممَّا انتفضت لأسلاك الكهرباء, التي صعقوك بها على مر الأيام الفائتة, وينساب الزَّبد الأبيض مقززًا من بين شفتيك؛ تنقلب له بطن الضَّابط, ولا إراديًا يتراجع للخلف خطوات, وكأنَّ شياطين الأرض تطارده, يقترب الأضخم من الرِّجال, ويهمس في أذنيه:

- نوبة صرع يا باشا.

تنقلب شفتا الضَّابط ازدراءً, مُتحاشيًا النَّظر إلى خيطي الزَّبد على جانبي شفتيك, ورغمًا عن ذلك ابتسامة شريرة تطفح على وجهه, وتلتمع بالسَّعادة عينيه الضَّيقتين النَّافذتين, يقهقه, تأتيك جملته الأخيرة فيما يبتسم:

- دعوه, لم يعد منه جدوى!

ينقشع المشهد رويدًا؛ الضَّابط, الرِّجال, الكرسي, الحوائط, الأرضية؛ عدا "فايز" المنكوب بالألم, متكور كما هو على نفسه, عالق في العدم؛ الرَّعشات المجنونة ما تجتاحه, الزَّبد على جانب الشَّفتين ما ينساب, الأنفاس المتباطئة ما تتردد على استحياء, وأنين خافت ينبعث بتناغم منضبط.

العدم أفق وسماء وأرض, ولا طيف أمل في السَّكينة, ولا قبس ضوء يبث الطَّمأنينة في القلب الغارق في الوحشة.

ينتفض من سقطته, يصرخ بصوت يشرخ صمت الوجود المتواطئ مع العذاب والقهر, ينادي بما تبقى من عافية غادرته على مرشهر:

"مهاااااا"

الصَّوت ممطوط متهدج, أجوف فارغ من الحياة.

ومع كل آلامه يحدوه أمل؛ يرفع له رأسه وينتظر. يلطمه الصَّدى بلا إجابة تأتيه. يفتته الصَّمت الَّذي أعقب فورة الحياة, إلى ملايين الجزيئات, يحيله إلى بخر, يتصاعد إلى سماء لا يدركها بصر, ليلحق بالضَّابط والرَّجال ومفردات

القبو المعتم.

ذهني فارغ الآن, تصفر فيه ريح عقيم, ممَّا تهلك الحرث والنَّسل, ولا تأتي أبدًا بغيث, تحمل من حقدها الدَّفين سفيف رمال, ترشقني بملايين الذَّرات, تسد مسام الذَّاكرة, لأغدو كما كنت منكوبًا بالجهل لحقيقة "فايز", حقيقتي أنا!

وبشكل مفاجئ يأتي صوتها, يُنقب أكوام الرِّمال عن جُب الذَّاكرة, يخفق في الأجواء, يجيب النَّداء:

"أنا هنا!".

يتخلق مشهد أكثر بهجة, في حديقة القصر, وقد استفقت في حالة وسطية, بين اليقظة والغيبوبة.

وجهك غائم بالكدمات, ومها تواجهك, صفحة وجهها المستدير كالقمر غائض منه ماء السَّعادة, حل به كثير حزن.

وما تفتر تجيب نداءك الملتاع:

- أنا هنا!

أنت موجود وغير موجود, تنظر ولا تنظر, تردد بلا وعي بين فينة وأُخرى:

- "مها"!

يرشقها حالك في صميم القلب, تهمس قهرًا وحبًا:

- أنا هنا!

وفي فترات الصَّمت تتمتم "مها" بغيظ وغضب:

- مجرم!

تعض شفتها السُّفلى, تضغط نواجذها:

- مجرم!

وتلتفت إليك متهدجة الصَّوت:

- "فايز", "فايز", حدثني, أنظر إلي!

يأتيك صوتها طيفًا من مكان بعيد, من بئر عميق! لا تجيب, ولا تعرف بما تجيب, ولا تعرف من تقصد بقول "مجرم"!

ذهنك يستجيب, وجسدك يلُفه همود, تجتاحك تساؤلات عن أمر بعينه؛ ماذا لو علمت "مها" بمرضك! هل تبقى بجوارك! هل تظل تحبك! هل تستسيغ

مشهد الزَّبد يتساقط من شدقيك, وأنت تنتفض, تتشنج, تنشج كالنِّساء! هل يقف الحب في وجه عاصفة كهذي, أم سيهرع وينكص على عاقبيه إلى غير رجعة!

لم تنصفك الحياة, فهل تنصفك "مها", وهي جزء من الحياة!

رنوت للعدل, فأثبتت لك الأيام أنَّ الحياة لا تصلح أرضًا, ما دام ساكنها البشر, العدل هناك في الآخرة, حيث اللَّه يقف بالقريب لا يسمح باختلال, أمَّا هنا, على الأرض, فهو يترك البشر بإرادة حرة, يختبرهم, يتركهم يعيثون, يفسدون, ولا تظنه يتدخل إلا إذا اختل الميزان شيئًا كثيرًا, وكادت الدُّنيا تنقلب رأسًا على عقب, حينها تظنه يتدخل بقدر, فقط لتستمر الحياة, تظنه لو لم يفعل بتدخله هذا, ما قامت الدُّنيا ساعة.

وبعد ما خبرت, من طبع نفسك الرَّهيف, وقسوة الحياة, قررت الاعتكاف, وروضت نفسك ألا تحزن للمطحونين, للمعذبين, يقينًا تعلم أنَّ اللَّه سيكافئهم يومًا, سيعوضهم هناك, فاللَّه عدل, وهذي النَّتيجة وحدها ما أثلجت صدرك, ما ملست عليه بردًا وسلامًا.

وتصل لسؤال يلح عليك؛ ما بغيتهم هذه المرة! وقد تغيّر تجاهك, وتحورت قناعاتك في هذا الشَّكل المسالم! لم ظهر الضَّابط النَّحيل مجددًا في حياتك! لم دخلت بيت العناكب ثانية, وأنت لم تعد تبغي إلا السَّلام في كنف الحياة مع "مها"!

"أتكون "مها" هي الممنوع الجديد؟!".

تعتريك يقظة لفجائية النَّتيجة, فتستقيم في مجلسك.

الجو صحو, والعصافير تزقزق, ومها قمرية الوجه, منسدلة الشَّعر, تشع بابتسامة مشرقة لعودتك للحياة.

لأيام وليالي وأنت في غيبوبة, أشد من غيبوبة المرة الأولى, منذ خروجك الثَّاني من بيت العناكب. خلالها شعرت بروحك تستعد للرحيل, وشيء يدق مثل جرس الخطر, ينبئك طوال الوقت بصوت رتيب قاس أنَّك تحطمت, وأنَّه لم يعد ثمَّة هدف بعدما أصابك الصَّرع! "مها" لن تريدك, والحياة في الأصل لا تريدك. وثقلت أنفاسك, وارتخت أطرافك, وبدأ الضَّوء يخبو من حدقتيك..

ثُمَّ طيفها الرَّهيف يأتيك, حيث محطة النِّهاية ضبابية مفزعة, وقطار المغادرة على مرمى البصر يزعق بالصَّفير, يضرب بضوئه في عمق العتمة. فزعة تتشبث باستماتة محب بأطراف الحياة داخلك, تجذب, وتجذب, تدلك وجودك, تهدهد روحك, تمنحك بحبها هدفًا براقًا للوجود.

من بعيد, يأتي "ياسين" وبيده مظروف, لمعة تبرق في عيني "مها"؛ لتعرُّفها على شكله المميز, تشير للعجوز خفية ليذهب, لم يفهم "ياسين", أو أنَّ العجوز الماكر لم يُرد الفهم, تنتبه أنت, تشعر بأهمية الأمر, تتساءل عيناك, تجيبك:

- كنت خائفة عليك!
- لا أفهم!
- فأردت البعد!
- لا أفهم!
- كان قلبي يشعر أنَّه يعلم ما بيننا!
- من؟!
- عيناه النَّافذتان المخيفتان, كانتا تقول.
- من؟!
- أخذك قبل أن تستلم المظروف من عم "عطية"!
- من؟!

أشاحت "مها" بوجهها, ونطقت بالإجابة:

- "مروان".. ابن عمي.. ضابط أمن الدَّولة الَّذي احتجزك طوال الشَّهر.

تستمع, ترهف أذنيك, لا تسمعها, شفتاها تتحركان بلا صوت, وثمة من يهاجمك, العدو بداخلك, صار بداخلك, يخترق خلاياك, يشد أوتارك, يعطل حواسك, يجمد عقلك, يسقطك من فوق الكرسي, تتشنج, تنشج, يندلق الزَّبد من فمك, تجرش أسنانك, تزوم, تئن, وأخيرًا تهمد!

"مها" تنشج هي الأخرى, تحتضن رأسك, دموعها تهطل على خديك, وصوتها يأتيك كالحلم: أنتَ لي! أنتَ لي!

***

حط غراب حالك السَّواد, على فرع شجرة الكافور الضَّخم المتدلي على بيت

الجنايني, في ذات المكان الَّذي ربض فيه قاتل "فايز".

غبشة المساء تتسحب رويدًا, تكسو الدُّنيا, وتعتم الرُّؤية. "ياسين", على غير العادة, لا يجد رغبة في المغادرة مبكرًا إلى مسكنه النَّائي البعيد, لن تصل درجة شجاعته للمبيت في بيت الجنايني, الرَّغبة فقط في المكوث قليلًا, وتناول قدحًا من الشَّاي الثَّقيل, يتنسم أثناءه روائح أشجار الموالح واللَّيمون النَّافذة الشَّذية, استطيبتها نفسه مع قدوم المساء, وانكسار حدة الحرارة.

حائر هو "ياسين" بين رهابه من اللَّيل وحبه الخفي له, ليس رهبة اللَّيل لحلوك الظُّلمة, ولكنَّ اللَّيل بصمته وسكونه وأشجانه. حب ينكره في نفسه ويشجبه ويثور عليه, وسرعان ما يعترف به, ويُسلِّم بوجوده, وينكسر له, فيأخذه حيث أراد.

اللَّيل في عرفه هو موطن الشَّجن ونداهة الذِّكريات, تنساب خلاله ذكرى "طاهرة", القابعة في العالم الآخر, تؤجج فيه نيران الفقد, تقذف به إلى دوامات التَّلظي, وتلسعه بسوط من وحشة. ومن شدة الوجع يتهاوى, يغيب عن الوجود, يغفو إغفاءة من لم يعد يحتمل, يحلم حلم المريض بداء عضال بالدَّواء النَّاجع, يقابل طيف وحيدته في مكان سحري, خارج الزَّمان والمكان, يتعانقان, يتهامسان, يرتشفان لحظات هنيئة من السَّعادة رغمًا عن الموت, يتواعدان بلقاء قريب في حُلم مثل هذا, أو آجلًا في العالم الآخر, إلى الأبد.

هذا التَّلاقي المتوهج بينهما, يأتي بعد أقاصي الألم, والإحساس بالفقد والوحشة من جانب الكهل "ياسين". ولحظة انقشاع الحلم, بما فيها من حتمية الفراق, هي الأخرى ذروة الألم, فيبدو الألم من شدة قسوته وجبروته, لا يرتضي إلا أن يُسلم بعضه بعضًا, غير مكترث للضعف النَّاخر في عظم العجوز, ولا لجلال شيبه, وعظيم مصابه.

ويأتي انبلاج الوعي, مثل سيف انتقام, صارم بتار, ينتظر على أحر من الجمر؛ ليجز وينحر في ذات العجوز الملتاعة, في مقابل كل ما سلب من هنيهات سعادة في لحظات السُّبات.

"ياسين", ومن النَّهش الَّذي يعتمل بالقلب, مثل ذئاب مسعورة, يتمنى أن ما جدد الحُلم الأسى, فلا جاء, ولا رحل, ولا أيقظ لحظة الفقد وأجج جذوة الألم.

من أجل هذا يلتحف "ياسين" بالضَّجيج قدر جهده, وهو الَّذي أبواه الصَّمت والتَّجهم. يبني مُدنًا من الصَّخب لا يبرحها, علاقات وبشر كُثر أقحمهم في حياته بعد حادث مقتل "طاهرة"؛ بوابي عمارات, خدم أثرياء, وأناس من العوام. يتخذ منهم حصنًا ودرعًا, يرجو بهم الأمان.

الغراب يُسارق "ياسين" النَّظر. العجوز مستسلم, غارقٌ في أفكاره الحزينة. ينعق الغراب نعيقًا حادًا, ينبه الكهل من سكرته المغلفة بالموات. تتلاقى نظراتهما لوهلة.

"نعيق الغراب فأل شؤم" يبتسم "ياسين" للخاطر, ابتسامته محملة بمرار الدُّنيا, فلم يعد بالحياة ما يستبشر خيرًا بحقه. بموت "طاهرة", هو لم يعد يبغي سوى الرَّحيل.

ينعق الغراب نعيقًا مختلفًا, وكأنَّه ينبه لأمر, يلتفت "ياسين" فيجد الشُّرطي البدين يلج البوابة. القشعريرة تسري في بدن "ياسين", يتلمَّس البندقية المنتصبة على الجدار, و"كشاف الضَّوء" في جيب جلبابه, هذه المرة لا يشعر بالخوف الَّذي اعتراه في المرات السَّابقة, يشعر برغبة في الحديث, وألا يشعر بالوحدة, ولو كان هذا الَّذي سيجالس شبح, يبحث جاهدًا عن قاتله.

نعق الغراب بكل قوته, وكأنَّ أمرًا مفزعًا على وشك الحدوث, غير أنَّ الشُّرطي و"ياسين" لم يكترثا لنعيبه, وقد صار كرش البدين مواجهًا للكهل.

ابتدر الشُّرطي "ياسين":

- أمر عجيب!

تحسس "ياسين" "كشاف الضَّوء":

- ماذا هناك؟!

ابتلع غصة علقت بحلقه, وأردف:

- أيها الشَّبح!

قهقه الشُّرطي:

- شبح!

تمتم "ياسين", يهز رأسه المشتعل بالشَّيب:

- نعم شبح!

- أما زال شبح المرأة يشغلك؟!
- ليس وحدها!

هز الشُّرطي كتفيه المكتنزين:

- يلفك الغموض هذه المرة!
- الغموض يلف كل ما يتعلق بالقصر!
- عامة جئتك في أمر.
- أي أمر؟!
- صاحب القصر, "فايز", سيدك الَّذي قتل.

تمتم العجوز, يعتدل في مجلسه على الكرسي:

- ماذا عنه؟!

فتح الشُّرطي يديه على اتساعهما, يفكر من أين يبدأ, ثُمَّ أطلق زفرة, وقد انتوى أن يقص الأمر منذ البداية:

- أتذكر زيارتي السَّابقة بالقصر, يوم أتيت بصحبتك أتقصى عن شبح المرأة التي رأيت! المرأة قمرية الوجه, منسدلة الشَّعر!

قهقه "ياسين", ومكثت على شفتيه ذات الابتسامة المستخفة:

- ما هذا الإصرار؟!

زوى الشُّرطي ما بين حاجبيه متعجبًا:

- أي إصرار؟!

أجاب "ياسين" بتحد:

- الإصرار على التَّمثيل!

هز الشُّرطي رأسه, وزم شفتيه قليلًا, وقرر تجاوز الأمر:

- يبدو أنَّ أعصابك ليست على ما يرام.

قهقه "ياسين" ثانية, بشكل مستفز, ما جعل الشُّرطي يشعر بأعصابه تتوتر, فاستطرد سريعًا ليخرج من هذه الدَّائرة:

- خلال الأيام الماضية وجدت نفسي منشغلًا بأمر القصر.

ضم كتفيه, وزم شفتيه, واستطرد:

- مجرد انشغال من باب الفضول ليس إلا, بعيدًا عن التَّحقيقات

الرَّسمية, تفكير جعل يعتريني على فترات, حتى عثرت بالمصادفة البحتة على شيء مهم!

سارق النَّظرل"ياسين"؛ ليعرف ردة فعل حديثه عليه, فظهر"ياسين" منتبهًا, يرهف سمعيه لما يقول, فأردف:

- بالمصادفة قابلت محامي "فايز", هو أحد أقاربي من بعيد, وأخبرني الرَّجل بأمر فجر لدي الكثير من الشُّكوك.

تحفز الغراب, وانتفش ريشه, بدا يستعد للطيران.

سأل "ياسين" بعفوية, وقد تملك الحديث حواسه, وانتصب ظهره في مجلسه على الكرسي, ناسيًا يقينه من شخص الشُّرطي:

- بماذا أخبرك؟!

اقترب الشُّرطي:

- ثمَّة من لديهم دافع قوي لقتل "فايز"!

نعق الغراب, وعقد "ياسين" ما بين حاجبيه, متوتر خلجات الوجه, وسأل:

- من؟!

فرقع الشُّرطي بإصبعيه, وبرقت عيناه بوميض:

- ورثة "فايز"!

خُيل للشُرطي أنَّ "ياسين" انبسطت أساريره, وعموده الفقري المنتصب استرخي بأريحية على الكرسي, حتى أنَّ الغراب من همهماته الأعجمية, والنَّظرة العجائبية التي مسح بها وجه "ياسين", بدا قد لاحظ هو الآخر.